

الدعوة التوحيدية لقيام الدولة عند ابن تومرت

د. منصور عفيف
جامعة الأمير عبد القادر



إن لب هذه الدعوة التومرتية تقوم على أساس توحيدي اتخذه الموحدون غرضاً فيما بعد أساس قيام دولتهم الكبرى، ناظرين في ذلك إلى تعاليم إمامهم الذي أراد من التوحيد أن يكون قاعدة انطلاق ومن خلالها أوجب تعليم هذه النظرية المستقاة من كل المذاهب الإسلامية التي قرأها الإمام وأتقنها بعمق أوصله إلى أن توحيد الله ووحدايته واجبة وجوباً مطلقاً على كل إنسان، كلف بهذا العاقل الذي أوكل الله إليه القدرة على إدراك مكنونات أسرار الأشياء، وفهمها بعمق يدل أوضح دلالة على قدرة هذا الكائن العجيب المدقق لكل ما يريد الوصول إليه في فهم الذات الإلهية، لما خص به من العقل الذي هو ملكة يقتدر بها على إدراك الأشياء إدراكات جزئية أو كلية ممثلة في استنباط الأحكام ومعرفة دقائق الأشياء بالإطلاع على كنهها، حيث قدرة هذه الملكة التي ركبت في الإنسان فقال تعالى: ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر¹. إذ تكريم الله عز وجل لمخلوقه يكمن في العقل كما قال سبحانه: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"². والأبصار هنا يكمن في النظرة العقلية كما قال: "فإنما لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب، التي إلى الصدور"³. ومن هنا تكاثرت الآيات القرآنية المجددة للعقل الناطقة بعظمته دون أن تمنحه السلطة المطلقة والأحكام المستبدة على كل الأشياء، وهو مقيد وله حدود لا يتجاوزها فكانت هي نظرة المهدي إلى

1- 1122/551 وفي قوله تعالى: وحملناهم في البر والبحر، معناه في البر والبحر، أي في البر والبحر.

2- 1122/551 وفي قوله تعالى: وفي أنفسكم أفلا تبصرون، معناه في أنفسكم، أي في أنفسكم.

3- 1122/551 وفي قوله تعالى: التي إلى الصدور، معناه التي إلى الصدور، أي التي إلى الصدور.

1- الإسراء: 70.

2- الذاريات: 21.

3- الحج: 46.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية

العقل إذ منح تدخله في الشرع لعظم قدرته على إدراك كل شيء رغم أنه أول ما يجب على كل مكلف معرفة عارف يعبد، وهو يدرك لم يستحق هذا المعبود العبادة لذا جاء قول النبي الكريم من علم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة¹ إذ هي مرتبطة بمعرفة الله القادر وحده على صنع الأشياء وتكوين الخلائق، فمن لا يعرف هذا، فهي غير موجبة له على أي حال نتيجة بطلان غيرها لعدم معرفة المعبود نفسه، لذا قال النبي ﷺ "من كان يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله لا يلقاني بما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"²، ومن هذا، وجبت الجنة لقاتل لا إله إلا الله غير شاك فيها مؤمن بما إيماناً مطلقاً، وهو لما موثق يقين صادق تباعاً لقوله إياها، بشر بجنات من الله ورضوان.

وقد انطلق ابن تومرت من ذلك كله إلى أن التوحيد واجب وجوباً مطلقاً وأن العلم به ضرورة من ضرورات العبادة وهو عليها متقدم لا تصح إلا به إذ وجب العلم بالتوحيد وتقدمه على العبادة واعتماد العبادة على المعرفة³ المشروطة بالعقل الذي هو موكل إليه معرفة الله قبل عبادته إذ هي أساس شرط العبادة لله القادر على كل شيء، لذا، كان التوحيد "أول ما ينبغي أن يطلب تحصيله، إذ لا تقبل عبادة متعبد لواجب الوجود قبل إدراك حصول بغية التوحيد"⁴ استنتج إمام الموحدين ذلك كله من قول النبي الكريم: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة، وقوله لمعاذ إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله الذي لا شريك له"⁵ إذ استنتج مهدي الموحدين أن العبادة لله لا تصح إلا بالإيمان المعتمد على خلاص النية في العمل الذي يكمن في معرفة الإنسان لما يفعل بالعلم المستند إلى الطلب الدال على حصول الغاية والمقصد، إذ التوحيد يهدم ما كان قبله من الكفر هو عين الشرك الذي لا ينمحي إلا بتركه والإقلاع عنه إقلاعا كلياً يندم صاحبه عمداً

1 - رواه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان، باب الدليل. برقم 55/1 / 26.

2 - رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الدليل برقم 56/1 / 27.

3 - تاريخ الدعوة الموحدية بالمغرب من تأليف علي عبد الله علام صفحة 277.

4 - أعز ما يطلب من تأليف محمد بن تومرت صفحة 229.

5 - أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 229.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية

كان منه أو ما كان قد وقع فيه من زلل أدى به الانزلاق في هوى الشرك، كما يقرر أنه بضرورة العقل يعرف وجود الباري سبحانه والضرورة ما لا يتطرق إليه الشك ولا يمكن للعقل دفعه¹ إذ الضرورة العقلية لا يوجد فيها شك نتيجة وقع استدلالها على واجب الوجود بحوادث تثبت إيجاده للأشياء وقدرته على الإبداع في صنعها إذ لا يعلم كنهها إلا هو لحصول علمه تعالى بالأشياء قبل إيجادها وإخراجها من العدم إلى حيز الوجود، وقد كانت قبل الآن موجودة باعتبار الذهن ثم إن انعدامها حاصل لا محالة، تلك ضرورة العقل الذي يعطيه ابن تومرت القدرة على التحصيل والعلم، فضرورته لا يتطرق إليها الشك بحلل لما تتمتع به من قوة على إدراك الأشياء في عدمها وقبل إيجادها، حيث يستهدف ابن تومرت من وراء كل هذا إلى أن تقسيم الضرورة العقلية التي يتم بها الاستدلال على واجب الوجود إلى ثلاثة أقسام "واجب وجائز ومستحيل، فالواجب ما لا بد من كونه كافتقار الفعل إلى الفاعل. والجائز ما يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون كزول المطر. والمستحيل ما لا يمكن كونه كالجمع بين الضدين، وهذه الضرورة مستقلة في نفوس العقلاء بأجمعهم وقد استقر في نفوسهم أن الفعل لا بد له من فاعل ليس في وجوده شك"².

ولعله أراد إقامة تعاريف لهذه الضرورة العقلية باعتبار تقاسيمها حتى أنه بالإمكان القول من أن الواجب هو الذي لا يتصور في العقل نفيه بحال كإيجاد السماوات والأرض والبحار والجبال وسائر ذلك، مما يعجز العقل البشري عن نسبته إلى غير ذي الجلالة، الملك العلام وأن الجائز هو الذي يتصور عقلا وجوده وعدمه كزراعة الأرض حيث بالإمكان أن تثبت شيئا وقد تكون قاحلة جرداء، كأنها لم تزرع البتة، وكان يحاول الإنسان اختراع شيء ما يريد نيل نجاح في ذلك المقصود، فقد يكون له ذلك وليس من الواجب أن يحقق غرضه الذي يصبو إليه وأن المستحيل هو الآخر يجوز أن يقال فيه إنه لا يتصور في العقل وجوده كاتخاذ الله جل شأنه شريكا له معه حق التصرف في الملكية، إذ لو وقع ذلك لبطلت

1- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 230.

2- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 230.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية

المعجزة، وكان ذلك انتقاصا في حق القادر الصانع في إتقان وإبداع ملك لا ينازعه فيه إله، لذا نبه جل وعلا بقوله: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"¹ وقوله: "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض"² والآيات الدالة على استحالة وقوع ما لا يجوز في شأنه كثيرة لا يتطرق الشك إليها بما تحيطه في طياتها الدالة على إعجاز البشر وعدم قدرتهم على الاستقلال، بإيجاد أبسط شيء يوازي إيجاد الله لهذه المخلوقات بكيفية عجيبة لا يدركها العقل البشري، إلا حين يتدخل فيها ليثبت عدم قدرة الكائن على إيجاد المستحيلات وخوارق العادات، يكون له مبعث إيمان يخلصه من أوهامه وما يحوم في عقله من شكوك في الذات الإلهية المقدسة، التي لا يستطيع لعقل نفيتها لما في قول الله تعالى من إيجاد هذه الأشياء التي لا تنسب إلا إليه، فإذا انتفت نسبتها لغيره، انتفى الشك عنه: "أففي الله شك فاطر السماوات والأرض"³ إذ أخبر أن إيجاد السماوات والأرض ليس هناك في أمرها من شك وما انتفى عنه ذلك وجب كونه معلوما، فثبت بهذا أن الباري يعلم بضرورة العقل⁴.

ويعضى ابن تومرت في حديثه الذي يذكر فيه أن الإنسان بإمكانه أن يعرف خالقه تبعا إلى استدلاله على ذلك انطلاقا من وجوده وهو الذي وجد من غير شيء وقد كان معدوما إذ "بحدوث نفسه يعلم الإنسان وجود خالقه لعلمه بأنه موجود بعد أن لم يكن. ولعل ما يكفيه من أدلة وبراهين قاطعة كلها تدل على أنه خلق من ماء مهين. والإنسان يعلم بالضرورة أن الماء الذي خلق منه على صفة واحدة ليس فيه اختلاف ولا تركيب ولا تصوير ولا عظم ولا لحم ولا سمع ولا بصر، ثم وجدت فيه هذه الصفات كلها بعد أن لم تكن موجودة، فلما علم حدوثها علم أنها لا بد لها من خالق خلقها"⁵ ومن هنا لم يكن في كلام

1- الأنبياء: 22.

2- المؤمنون: 91.

3- إبراهيم: 10.

4- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 230.

5- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231/230.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية

إمام الموحدين خروج عن الآيات القرآنية حين تحدث عن خلق الإنسان الذي هو مطالب بالنظر إلى نفسه، كي يعرف من خلال ذلك أن واجده الذي أوجده من غير شيء لا يوازيه شريك له في ملكوته، حيث صورت الآية القرآنية ذلك "وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً"¹ وعندما يتحدث عن خلق الإنسان من ماء فهو يرى أنه لا توجد به هذه الصفة التي يشاهد عليها وهو لم يكن إلا ماءً متدفقاً خالياً من العظام واللحم وكل الصور المؤهلة لهذا الكائن العجيب، كي يكون إنساناً حين يقول تعالى: "فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق"² فلما "علم حدوثها علم أنها لا بد لها من خالق خلقها"³ متخذاً قدوته الآية القرآنية التي صورت الإنسان وهو مخلوق من سلالة مرجعها إلى التراب صارت تلك بعد مستقرة في الرحم إلى أن تحولت إلى نطفة، وبدلت بعلقة فكانت العلقة هي الأخرى مضغعة وإلى أن عادت إلى عظم كسي لحماً إذا تم خلق هذا الكائن في تدرج دال على قدرة الله في إحكام وإتقان عجيبين يعجز عنهما المخلوق كيف يستطيع أن يقوم بهذا وهو غير قادر على إعادة نفسه إلى جديد بعد أن تكون قد بليت، وتلك هي نظرة ابن تومرت إلى النفس الإنسانية استقاهها من القرآن حرفاً بحرف لم يزد عليها قيد شبر حيث قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" إلى قوله "فتبارك الله أحسن الخالقين"⁴.

وبالفعل الواحد يعلم وجود الباري سبحانه وكذلك الثاني والثالث إلى ما لا ينحصر وجميع المخلوقات يعلم بها وجود الباري سبحانه كما يعلم بحدوث الحرة الواحدة لوجوب افتقارها إلى الفاعل واستحالة وجودها من غير فاعل وما وجب الفعل الواحد من الافتقار إلى الفاعل وجب لجميع الأفعال كل ما علم وجوده بعد أن لم يكن واجب حدوث⁵ أي أن

1- مريم: 6.

2- الطارق: 5-6.

3- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231.

4- المؤمنون: 12-14.

5- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية

استدلال الإنسان على وجود الخالق، يمكن في استخدام فعل واحد يكفل له إثبات قدرة موجد الوجود فخلق شيء واحد من بقية الأشياء لدليل كاف على وجود الله، الذي صنع كل هذه المحدثات استنتاجا من حادثه واحدة من بقية الأفعال الدالة على ثبات وجوده وعدم انتقائها. سبحانه إذ السماوات بجلالها والأرض وما فيها والبحر بعظمته وكل سائر الأشياء موحدة لله دالة على ثباته يضاف إلى ذلك الليل والنهار والحركات والطيور والوحوش وما إلى ذلك وكل فعل لابد له من فاعل إذ ليس بإمكان الفعل إن يحدث نفسه كما أن ليس للحركة أن تكون من غير متحرك يؤديها، وواقع إن ابن تومرت لا يخرج بأي شكل عن القرآن في كثير مما استدلل به على الأجناس الموجودة بعد أن لم تكن فإذا علم حدوث جسم واحد علم حدوث سائر الأجسام لمساواتها في التحيز والتغير والجواز والاختصاص والحدوث والافتقار إلى الفاعل¹ استقى كل هذا من قوله تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار.....آيات لقوم يعقلون"². إذ العقل وحده هو القادر على التدبر في آيات الله العجيبة لما امتدح به من قوة على الإدراك وقابلية يمكن فيها فهم أسرار الآيات الإلهية التي خاطبت العقل عندما طالبت التدبر في كونها وبحث أسرار عجائبها بعمق؟ انطلق منه فيلسوف الموحدين صارخا معليا صوته بوجوب التوحيد وضرورته لكل عاقل مكلف بهذا الإشعاع مصدر التفكير ومنع الانطلاق ساجحا في مجال الآيات سابرا أغوارها مستمدا منها قدرته مليبا ما دعت إليه من مطالبه بالعمل الذي من خلاله أوجب إمام الموحدين على الإنسان معرفة الله بعقله بعد أن انتهى من أن المرشد العاقل فهم حق وحدانية الخالق في ملكه وقدرته على التصرف في هذا الصنع العجيب الجدير بالتدبر العاقل فيه وإليه وجه الخطأ ببقوله "الله أوجب على كل مكلف أن يعلم الله عز وجل واحد في ملكه، خلق العلم بأسره العلوي والسفلي"³. يبيده تصريف أمور الخلائق جميعها إذ هم مقهورون بقدرته لا تتحرك

1- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231.

2- البقرة: 164.

3- مرشدة ابن تومرت وآثرها في التفكير المغربي من تأليف سعد غراب 365.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية
 قوة إلا بإذنه موجود في الخلق ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ويمين ولا شمال...
 لا يتخصص في الذهن ولا يتمثل في العين لا يتصور في الوهم ولا يتكيف في العقل ولا
 تلحقه الأوهام والأفكار...¹ ليس كمثله شيء مرتفع عما سواه، خاشع إليه ما عداه أتقن
 الأشياء إتقاناً عجيباً، لا يقدر على إتقانها قادر، ثم يتوقف ابن تومرت عند قوله تعالى:
 "الرحمن على العرش استوى"². مستدلاً بأقوال المفسرين كان ولا مكان فهو على ما كان
 قبل خلق المكان لم يتغير عما كان "لا يقال متى كان، ولا أين كان، ولا كيف كان، ولا
 مكان كون المكان ودبر الزمان ولا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان، لا يخرقه وهم ولا
 يكنفه عقل"³.

كان إذا أوجب التوحيد على الناس وتعريفهم إياه بفضله غير خارج عن أي الكتاب التي
 خاطب فيها العقل وأوجب عليه التدخل في توحيد الله وتزيهه ومن هنالك لا ينبغي أن
 ننسى أن ابن تومرت أباح تدخل العقل في التوحيد على حين منعه أن يتدخل في الشرع،
 وقد أقام التوحيد على أساس العقل وذلك لأن طريق التوحيد العقل وكذلك التزيه عند إمام
 الموحدين وفيلسوفهم الأول"⁴.

خلاصة القول

إن سبب إعلان ابن تومرت مهدويته التي ترمي إلى ملئ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت
 ظلماً وجوراً (حيث كانت مهدوية ابن تومرت في نطاق إسلامي سني معتدل لا كما عهد
 الناس في مهدوية الفاطميين الإسماعيليين المغالين الذين خرجوا على السنة وأهلها بل حاربوا
 السنة واضطهدوا أهلها) فكان إمام الموحدين خير منقذ للسنة وأهلها في إطار تكوين دولة
 موحدية تجنح إلى الاعتدال في غير غلو، وحاصل الأمر، فقد كان الجانب التوحيدي أبرز

1- مرشدة ابن تومرت وآثرها في التفكير المغربي من تأليف سعد غراب 365.

2- طه: 5.

3- مرشدة ابن تومرت وآثرها في التفكير المغربي من تأليف سعد غراب 365.

4- تاريخ الفلسفة في شمال إفريقيا من تأليف يحيى هويدي صفحة 240.

د. منصور عفيف الدعوة التوحيدية

آثار الدعوة الموحدية وأبقاها على الأيام حيث زالت الدولة كما يزول كل شيء في الحياة وزالت معالم المهدوية التومرتية عمليا قبل أن يسقط الموحدون، ولكن آثار الدعوة في ميدان التوحيد¹ ما تزال قائمة بالمغرب إلى يومنا هذا والسبب في بقاء الأثر التوحيدي الكلامي بالمغرب حتى الآن فيها اعتقد أن الدعوة الموحدية كانت في جوهرها كفاح في سبيل التطوير الفكري المغربي، ومهما كان في دولة ابن تومرت من عيوب ومهما حدث في ذلك كله من انحرافات وانزلاقات يكفيها فخرا واعتزازا أن احتضنت فلسفة ابن رشد فحمتها ورعتها ولوقت قصير.

1 - تاريخ الدعوة الموحدية بالمغرب من تأليف عبد الله علي علا ص 6-7.